مَـوْسُـوعَـةُ
فَوَائِـدِ القُـرآن الـزكِيَّـة

سُورَةُ المُطَفِّفِينَ

أ.د خـالد بن حـامد الحـازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة المطففين

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة المطففين

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ٣
أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ
ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ٧ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ٨ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٩ ﴾

ابتدأت سورة المطففين بالتحذير من التلاعب بالمكاييل والموازين التي يقس بها الناس فيما يتفقون عليه من البيع والشراء، بين البائع والمشتري. فقال تعالى ﴿ وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ﴾ أي: الوعيد الشديد للمتلاعبين بالموازين عند البيع والشراء. أولئك المخالفون لأمر الله تعالى في شأن الكيل والميزان، وهي المعاملة التي تكون بين الوازن والموزون له، وقد فسر عَزَّ وجل التطفيف بقوله جَلَّ جلاله ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ﴾ الذين يستوفون لأنفسهم، فإذا اكتالوا واتزنوا من الناس لأنفسهم استوفوا عليهم الكيل والوزن. ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ﴾ وحين يكيلون أو يُوزنون لغيرهم من الناس مما يجب لهم من الاستحقاق، فإنهم يُنقصونهم في الوزن. فإذا وزنوا للناس حقهم ﴿ يُخۡسِرُونَ ﴾ أي: يُنقصونهم في الكيل والوزن عما يستحقون، فلا يستوفون لهم الحق، فيوقعونهم في الخسارة التي هي النقص. بما يعني ويفيد أنهم يتلاعبون في المكاييل والموازين بالنقص وعدم الاستيفاء لغيرهم، وعندما يكون الوزن والكيل لهم فإنهم يستوفونه كاملاً. مما يدل على تلاعبهم في الحقوق، واستغفال الناس فيما لهم من الوزن والكيل. فهذا معنى التطفيف. وهؤلاء لهم الوعيد والتهديد من الله تعالى بما يستحقون من العذاب ﴿ وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ﴾ الهلاك والعذاب الشديد لمن طفف في الكيل والميزان. مما يبين عدل الإسلام، وتربيته لأتباعه على الوفاء، وعدم الغش، حتى ولو كان مَن يُكال له جاهلاً، أو ضعيفاً لا ينتبه لحقه. فيحرم التطفيف بالتلاعب في المكاييل والموازين.

ومن دقائق البيان الكريم هو استهلال السورة بالوعيد ﴿ وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ﴾ لإفادة قوة التهديد والوعيد، والتشويق لمعرفة من هم المطففين، ووجوب الانتهاء عن التطفيف، وتحريمه، ووجوب استيفاء الحق لأهله من غير بخس لهم.

وفي البدء بالوعيد ما يفيد ويبين قوة التحذير والتهديد لهم. فقوله تعالى ﴿ وَيْلٌ ﴾ أفاد: قوة وعظمة التهديد والوعيد، بالهلاك الذي سيحقق ويولد الحسرة والندامة للمطففين. ومن دقائق البيان الكريم أنه لم يُحدد موعد العقاب، لإفادة التهويل، وبعث الترقب في قلوب المطففين، ليزدادوا به تفكراً وترقباً وتخوفاً، وأيضاً لتعظيم التهديد والتخويف لهم. وليشمل ما يكون في الدنيا، وما يكون في الآخرة. فاستوفى البيان الكريم كل ما هو قادم من عذاب الله تعالى لهم، وهذا من براعة البيان في كتاب الله تعالى في استيفاء المراد بأقل الألفاظ.

ثم ينبه سبحانه وتعالى المطففين، ويحذرهم من يوم البعث، الذي يكون فيه الاقتصاص للمظلوم من الظالم، فقال الله تعالى ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴾ ألا يخطر ببال هؤلاء المطففين أنهم سَيُبْعَثُون يوم القيامة، فَيُسأَلُون عما كان من تطفيفهم في المكاييل والموازين؟ قال المفسرون: والظن ها هنا بمعنى العلم واليقين[١] أي: ألم يعلم هؤلاء بيوم البعث، فيتحقق في نفوسهم، فيخافوا من ربهم سبحانه وتعالى. وهو سؤال يفيد الإنكار والتهويل والتفظيع والتعجب من حالهم في جرأتهم بالتطفيف في المكاييل والموازين، وكأنهم يتناسون يوم البعث والحساب، والجزاء. والذي أسماه تبارك وتعالى بحقيقته من العظمة والتهويل، فقال عَزَّ وجل ﴿ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ الذي هو يوم القيامة. فقد سَمَّاه تبارك وتعالى باليوم العظيم، الذي يعطي دلالة الهول، والخوف والفزع، وأنه يوم جليل الخطب. بما يفيد أنهم لو أيقنوا تمام اليقين بيوم البعث لما كان منهم ذلك. مما يبين الأثر العظيم للإيمان بالبعث على السلوك والأخلاق، فإنه أقوى ضابط لأفعال الإنسان وأقواله في السراء وفي الضراء، وفي الخلوات، وفي كل حال من أحوال المؤمن.

ومن تأمل قوله تعالى ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴾ استيقن أنها قاعدة عظيمة الأثر. فإنها تضبط فكر وأخلاق وتعاملات المؤمن في جميع أحواله تصرفاته، وخلواته وتعاملاته مع غيره، وفي نفسه. فكلما دعته نفسه للانحراف تذكر قوله تعالى ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴾ وإذا تاقت نفسه لشيء من هواها، أيقن بقوله تعالى ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴾ وإذا رأى غيره على غير هدى في أمر من الأمور وعظه بقوله تعالى ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴾ فهي مُوجه وضابط لأعمال الإنسان في عبادته، وفي أخلاقه، وعموم تعاملاته في نفسه، ومع غيره.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٨/٢٠٠)

ثم يزداد التفصيل والبيان لذلك اليوم العظيم، فيقول جَلَّ جلاله ﴿ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ إنه اليوم الذي يقوم فيه الناس من قبورهم بين يدي الله تعالى لفصل القضاء، فيحاسبهم على جميع ما كان منهم. يقول ابن عاشور رحمه الله تعالى: فالتعبير بالمضارع ﴿يَقُومُ﴾ يفيد استحضار الحالة. واللام في ﴿لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ للأجل، أي: لأجل ربوبيته، وتلقي حكمه. والتعبير عن الله تعالى بوصف ﴿لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ لاستحضار عظمته بأنه مالك أصناف المخلوقات[١] مما يبين دقائق ألفاظ وحروف القرآن الكريم. وبما يبين عظمته حتى في سياقه وتراكيب كلماته.

ثم ينتقل بهم السياق والتوجيه الكريم إلى الزجر والردع للمتغافلين عن البعث، وما بعده من الحساب والجزاء. فقال تعالى ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ﴾ ليس الأمر كما يطن هؤلاء من أنهم غير مبعوثين ولا محاسبين. فقد أفادت ﴿ كَلَّآ ﴾ الزجر والردع والنفي، فليس الأمر والشأن كما يظن هؤلاء الفجار، أنهم غير مبعوثين. فإن الأمر والشأن هو ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ﴾ إن كتاب أعمال الفجار ﴿لَفِي سِجِّينٖ﴾ فإن كتاب أعمالهم في مكان اسمه ووصفه هو ﴿سِجِّينٖ﴾ وقيل في معناه: أن كتبهم في الأرض السابعة لا تصعد إلى السماء، تحقيراً لهم. فعن ابن عباس رضي الله عنهما: أعمالهم في كتاب في الأرض السابعة السفلى. وبمثله قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وقتادة، ومجاهد، والضحاك[٢] وغيرهم. وروي عن مجاهد رحمهم الله تعالى جميعاً: أن ﴿سِجِّينٖ﴾ صخرة تحت الأرض السابعة، جُعِلَ كتاب الفجار تحتها. وهذه علامة لخسارتهم، ودلالة على خساسة منزلتهم[٣] مما يبين أن مَن كان فاجراً فإنه في أعظم خسارة، وأعظم هوان وأذل حالاً. وأن مصيره إلى النار.

وسماهم الله تعالى بالفجار لخروجهم عن الحق، لأن الفاجر هو الخارج عن الحق، والمبالغ في ارتكاب الآثام. فإن قلوبهم قد خَلَت من الإيمان والخوف من الله تعالى، فأصبح الفجور القلبي والفجور العملي مسلكهم. فالفجور هو الفسق، بالخروج عن الفطرة والدين، وعن الدلائل العقلية، وعن الأحكام الشرعية. ومنه انفجار الماء، بما يعني خروج السلوك والتصرفات عن الحق، وعما يجب أن يكون عليه الإنسان.

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٥٣٩/١٢)

(٢) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٩٣/٢٤-١٩٧)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٠٢/٨)

ثم يُهَوِّلُ ويخوف اللهُ تعالى المكان الذي فيه كتاب الفجار، فقال تبارك وتعالى ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾ وما أعرفك بما هو سجين أيها الْمُخَاطَب. سؤال يفيد نفي المعرفة لسجين، مع عظيم التهويل، فليس ذلك مما كنت تعلمه أيها الْمُخاطَب. ثم أورد سبحانه وتعالى المقصود به، فقال عزَّ وجل ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ فإن ذلك الكتاب الذي في سجين هو ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ أي: مختوم ومكتوب فيه أعمالهم. قال القرطبي رحمه الله تعالى: كتاب مرقوم، أي: مكتوب كالرقم في الثوب، لا يُنسى، ولا يُمحى[1] مما يفيد أنه لا يُزاد فيه، ولا يُنقص منه. فالختم دلالة على قوة التوثيق له.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾

وبعد بيان الله تعالى لشأن يوم القيامة، يحذر جَلَّ شأنه المكذبين بذلك اليوم، فقال تبارك وتعالى ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ فالهلاك والدمار بالعذاب الشديد للذين كذبوا بدين الله تعالى، فأنكروا البعث والحساب والجزاء، والجنة والنار، فكذبوا الرُّسُل المرسلون لهم من ربهم عزَّ وجل. فبدأ الوعيد بدلالة قوله تعالى ﴿وَيْلٌ﴾ الذي يفيد: الهلاك والدمار والحسرة، ثم يهول الله تعالى ذلك اليوم ويؤكده بدلالة ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ذلك الحين، فالعذاب والهلاك ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ في ذلك الوقت والحين لهؤلاء الذين كذبوا المرسلين ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ وهم الذين لم يؤمنوا ولم يصدقوا بآيات الله تعالى، وحججه التي جاء بها المرسلون، فجحدوها وأنكروا دين الله تعالى، وما يتبعه من إنكار البعث والحساب والجزاء والجنة والنار.

فإنه وعيد شديد لهؤلاء ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ فالهلاك بالعذاب الشديد من ذلك اليوم الذي وعدهم ربهم به، وهو يوم القيامة. فسيأتي ذلك اليوم الذي وعدناهم به من البعث والحساب والجزاء بالعذاب والهلاك الشديد لهم. ومن دقائق البيان الكريم أنه لم يُحدد موعد هذا اليوم، ليزدادوا به تفكراً وتخوفاً، ولتعظيم التهديد والتخويف لهم. وليشمل ما يكون في الدنيا من القتل والأسر، والبلاء، وما سيكون يوم القيامة من

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٦٩/١٩)

عذاب جهنم وبئس المصير، فاستوفى البيان الكريم كل ما هو قادم من عذاب الله تعالى لهم، وهذا من براعة البيان في كتاب الله تعالى.

ويفيد هذا البيان الكريم التحذير من الله تعالى للعباد. بل قد ورد عاماً، لتشمل دلالة ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ جميع الكفرة، ممن كانوا في العهود الماضية من الأمم السابقة، ومن كان في عهده صلى الله عليه وسلم أو ممن لحق بهم، ومن يريد أن يلحق بهم إلى يوم القيامة. فهذا هو مصير المكذبين بدين الله تعالى، فاحذروا أيها الناس من ذلك اليوم. وهذا من رحمة الله تعالى بالعباد، إذ يبين لهم الطريق الذي يحصل به العذاب، ليحذروا منه ويجتنبوه. ويتجهوا للطريق المستقيم الذي هو من عند الله سبحانه وتعالى، فيدخلوا في دينه الذي أرسل به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يصف الله تعالى حال هؤلاء المكذبين في الدنيا، بما كان منهم من الاستهزاء والتمادي في التكذيب بالدين. فيقول جَلَّ جلاله عنهم ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ إنهم الذين يستبعدون يوم القيامة، فلا يصدقون بوقوعه، وما فيه من الحساب والجزاء. وقال تعالى في سورة الانفطار عن هذا اليوم الذي هو يوم الدين ﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝١٩﴾ ثم وصف سبحانه وتعالى حال المكذبين بيوم الدين، فقال عَزَّ وجل ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ فإنه لا يكذب بيوم القيامة ﴿إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ أي: كل من اتصف بالاعتداء ﴿مُعْتَدٍ﴾ أي: متعدي على الحق، وعلى محارم الله تعالى باعتقاده وأفعاله وأقواله، مرتكب للحرام وفاعل للإجرام. وكذلك من صفاته أيضاً أنه ﴿أَثِيمٍ﴾ متجاوز إلى أقصى ما بوسعه، فلا رادع له. فقد أطلق لنفسه ارتكاب الآثام. فدلالة ﴿أَثِيمٍ﴾ تفيد المبالغة في تعمد التكذيب. إذ تعني أنه قد ارتكب ما حصل به على الإثم الذي يستوجب العقوبة العظيمة.

ومن دقائق البيان الكريم استخدام أسلوب القصر ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ﴾ فالذين يكذبون بيوم القيامة هم أولئك المعتدون الآثمين ﴿إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ بما يفيد أن غير المعتدين الذين هم أهل الإيمان بيوم الدين، فإن من جليل صفاتهم أنهم لا يعتدون في ارتكاب الآثام. فإنهم في تباعد وتنائي وحذر من ارتكاب الإثم. مما يبين قوة أثر الإيمان باليوم الآخر، وبالبعث والحساب والجزاء، فإنه يضبط حياة الإنسان في الدنيا، فيجعله يسير وفق منهج الله تعالى، فيسلم حتى غيره من أذاه. بينما تكذيب المكذبين بيوم الدين يجعلهم يعملون ويتصرفون بلا قيود تمنعهم. فلا يمنعهم شيء عن التطفيف، ولا الاعتداء على غيرهم بالظلم، والجور وعموم الباطل. فمتى

سنحت لهم الفرصة صنعوا وبالغوا في فجورهم. مما يفيد الحذر من الكفرة في كل شيء. وإظهار محاسن الإيمان، وأنه نعمة على الإنسان المؤمن في الدنيا وفي الآخرة.

ثم يُشَنِّعُ اللهُ سبحانه وتعالى عليهم بأشنع صفاتهم. فقال تبارك وتعالى ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ إذا سمع أو قُرِئ على أحدهم شيء من القرآن العظيم ﴿ قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ وصفه ونعته بأنه مُفتعل، وأنه من الأباطيل، وأحاديث وقصص وموروثات الأقدمين، الأولين من الأمم السابقة، يتداولونها الناس عبر الأجيال. وقد عَظَّم الله تعالى آياته، فقال عَزَّ وجل ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا ﴾ فقد ألصق الله تعالى آياته بضمير المتكلم ﴿ ءَايَٰتُنَا ﴾ العائد على الله جَلَّ جلاله. بينما ألصقوها بالترهات والأساطير، فقالوا ﴿ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ فأبانت المفارقة العظيمة التي يستحقون بها أشد العذاب.

ثم يُبطِلُ الله تعالى افتراءهم على القرآن، بما قالوا: أنه من أساطير الأولين. فقال عَزَّ وجل ﴿ كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ كلا، ليس الأمر كما يقولون: بأنه أساطير الأولين ﴿ بَلْ ﴾ إن السبب الذي حملهم على هذا الافتراء على القرآن العظيم هو أنه ﴿ رَانَ ﴾ أي: غُطِّيَ وغُمِرَ ﴿ عَلَىٰ قُلُوبِهِم ﴾ بسبب ﴿ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ من التمادي في الكفر. فَسُتِرَ على قلوبهم بسبب ما كسبوا وحَصَّلُوا من الفجور في أعمالهم وأقوالهم. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: غلب على قلوبهم، وغمرها، وأحاطت بها الذنوب فغطتها. يُقال منه: رانت الخمر على عقله، فهي ترين عليه ريناً أي: تُغييب العقل. وعن قتادة رحمه الله تعالى: الذنب على الذنب حتى يرين على القلب، وعن مجاهد رحمه الله تعالى: الرجل يذنب الذنب، فيحيط الذنب بقلبه، حتى تغشى الذنوب عليه[1] أي: يُطبع عليه. وبالتالي فإنه بكثرة وتتالي فجورهم بالكفر وأنواع المعاصي، وتعمدهم القول والافتراء على القرآن الكريم، واستمرارهم على ذلك، فإن قلوبهم قد تغطَّت بالران حتى لا تتسع للحق، وحال ذلك دون تحقق الخير لهم بالإسلام، بسبب تماديهم في الكفر والطغيان.

فبدأ البيان الكريم بحرف ﴿ كَلَّا ﴾ الذي أفاد الردع والإبطال لقولهم بأن القرآن أساطير الأولين. ثم تلاه حرف ﴿ بَلْ ﴾ الذي أثبت ما بعده، وأكد النفي الذي تصدرت به دلالة ﴿ كَلَّا ﴾ لتأكيد نفي قولهم، وإبطاله، مع الردع لهم، ثم إثبات حقيقة سبب قولهم بأنه ﴿ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ بل غمر

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٤/١٩٩- ٢٠٤)

وغلب على قلوبهم ما غطاها من الفجور. مما يبين ويفيد أن الجرأة والتمادي في المعاصي يُثخن القلب، حتى يغمره بما يحجبه عن الطريق المستقيم، الذي هو دين الله تعالى وشريعته الغراء. وبما يعطي التحذير من التمادي في المعاصي، والجرأة على دين الله تعالى.

ثم يخبر الله تعالى عن حقارتهم، ونزول مكانتهم، ودناءة ما سيكونون عليه يوم القيامة، فقا تعالى ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ﴾ فإنهم محجوبون عن ربهم، فلا يحصلون على أعظم نعمة، وهي رؤية الله تعالى. وبدأ البيان العظيم بأداة ﴿ كَلَّآ ﴾ التي أفادت حقاً بأنهم عن ربهم لمحجوبون. وأفادت الردع والزجر. ثم تلاها بيان حقارتهم، وحجب النعمة الجليلة عنهم ﴿إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ ﴾ فإنهم عن ربهم في ذلك الموقف ﴿ لَّمَحۡجُوبُونَ ﴾ ممنوعون عن رؤية الله تعالى، فلا يمكنهم ذلك. قال الزجاج رحمه الله تعالى: في هذه الآية دليل على أن الله عَزَّ وجل يُرى في القيامة[1]وقال الشافعي رحمه الله تعالى: في هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرونه عَزَّ وجل يومئذ[2] وبالتالي لن يرى الكفار ربهم، ولن يرو شيئاً من كرامته، بينما المؤمنون يرون ربهم سبحانه وتعالى، ويغدق عليهم من فضله وكرمه، وعفوه، ودخولهم الجنة. وفي هذا بيان لحقائق ما سيكون قبل أن يكون، مما يحفز العباد على الطاعة وترك المعصية. وهذا من رحمته جَلَّ جلاله، إذ يبين للناس الحقائق القادمة، من أجل أن يتقوا ويُطيعوا ربهم سبحانه وتعالى بما أمر، ووفق ما جاء به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يخبر سبحانه عن ملازمتهم للنار، وأنها ملازمة لا ينفكون عنها أبداً، فقال تعالى ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ ثم يدخلون النار، فيحترقون فيها. حيث يأمر الله تعالى الزبانية بأن تأخذهم وتُوردهم إلى جهنم، فتصليهم بها، أي: تغمرهم فيها. وحينها تقول لهم خزنة جهنم توبيخاً وتقريعاً لهم بما كان منهم في الدنيا ﴿ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ هذا يوم القيامة الذي كنتم تكذبون به، وتنكرونه. إن هذا هو اليوم الذي يتم فيه القضاء والفصل بين الخلائق، فيفصل فيه بين المؤمن والكافر، وهو الذي كنتم به تكذبون وتنكرون. فهذا هو اليوم الذي يتمايز به الخلائق، فمنهم الشقي، ومنهم السعيد. فقد كانوا ينكرونه ويكذبون به في الدنيا. وفي هذا بيان وعرض واضح من الله سبحانه وتعالى لِمَا سيكون من حال المكذبين في الآخرة، بما يفيد: أن عليكم أيها المكذبون اغتنام حياتكم الدنيا، فآمنوا بما رأيتم من الحجج والآيات. وبما جاءكم به رسولنا محمد صلى الله عليه

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧١/١٩)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥١٨/٤)

وسلم. فإن الذي خلقكم وخلق هذا الكون قادر على كل شيء، ومنه البعث والحساب والجزاء. فآمنوا واتبعوا ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، فإنه خير لكم.

﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

وبعد بيان الله تعالى لعذاب الكفار بأنهم في نار الجحيم، وأن كتابهم في سجين، ينتقل السياق الكريم بعد ذلك إلى بيان حال أهل الجنة، الذين هم الفائزون بيوم القيامة. فقال جَلَّ جلاله ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴾ فإن كتاب الأبرار الذين هم أهل الصدق والإيمان والإخلاص والطاعة لله تعالى، فإنه في أعلى مكان، وأعلى منزلة.

فبدأ البيان بدلالة ﴿ كَلَّآ ﴾ التي أفادت معنى: حقاً ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ كتاب أعمال المؤمنين ﴿ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴾ مرفوع في عليين على قدر مراتبهم. قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: في الجنة. وعنه أيضاً: أعمالهم في كتاب الله في السماء. وقال الضحاك ومجاهد وقتادة رحمهم الله تعالى: يعني السماء السابعة. فيها أرواح المؤمنين[١] وقال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: والعليون جمع، معناه: شيء فوق شيء، وعلو فوق علو، وارتفاع بعد ارتفاع. فلذلك جُمعت بالياء والنون. وجائز أن يكون ذلك إلى السماء السابعة، وإلى سدرة المنتهى، وإلى قائمة العرش، ولا خبر يقطع العذر بأنه معني به بعض ذلك دون بعض[٢] فأفاد ذلك رحابة الدلالة، التي أفادت المبالغة في المقام والمكانة. فإن كتاب الأبرار ليس ككتابكم أيها الفجار في سجين، بل إنه في ﴿ عِلِّيِّينَ ﴾ فإن كتاب الأبرار في أعلى منزلة، إكراماً وتكريماً لهم ولكتابهم المملوء بالطاعة والأعمال الصالحة.

ثم يُمَجِّدُ الله تعالى عباده الأبرار، وكتاب أعمالهم، ببيان عظيم، بأنه ﴿ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴾ فقال عَزَّ وجل ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴾ وما أعرفك بما هو ﴿ عِلِّيُّونَ ﴾ سؤال يفيد نفي المعرفة بذلك، ليعطي به عظيم

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧٢/١٩)

(٢) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٤/٢١٠-٢١١)

البيان من التمجيد والتفخيم والتعظيم. فليس ذلك مما كنت تعلمه أيها الْمُخاطَب. ثم أورد سبحانه وتعالى المقصود به، فقال عَزَّ وجل ﴿ كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٌ ﴾ فذلك الكتاب الذي في علين هو ﴿ كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٌ ﴾ أي: مختوم. فهو مكتوب فيه أعمالهم، ومختوم، فلا يُنسى، ولا يُمحى. مما يفيد أنه لا يُزاد فيه، ولا يُنقص منه. فالختم دلالة على قوة التوثيق له.

ومن عظمته وتمجيده أنه كتاب ﴿ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴾ أي: يشهد ذلك الكتاب المقربون من الملائكة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كل أهل السماء. وقال الضحاك رحمه الله تعالى: يشهده مقربون أهل كل سماء[1] مما يبين المقام المحمود الذي يناله الأبرار. اللهم اجعلنا والمسلمين من عبادك الأبرار، بمنك وفضلك وكريم عطائك وجودك يا رب العالمين، يا أرحم الراحمين.

وبعد بيان الله تعالى لتكريمه وكرمه لكتاب الأبرار، ينتقل البيان إلى وصف حالهم، فقال تعالى عنهم ﴿ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ إن الأبرار الذين هم أهل الصدق والإيمان والإخلاص والطاعة لله تعالى ﴿ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ أي: أنهم يتنعمون في نعيم الجنان، المليئة بالبساتين والأنهار، وحور العين، وما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين. وسماهم سبحانه وتعالى بالأبرار، من البر الذي يفيد الصدق والاتباع، والْمُعَبِّرَة عن الإخلاص في الطاعة. فإن هؤلاء الأبرار في نعيم مقيم.

ثم يصف اللهُ تعالى لعباده هيئة وصفة جلوس هؤلاء الأبرار في الجنة، وما يرونه من النعيم المقيم، وما يحتجب عنهم من كل شيء ينغص عليهم سرورهم. فقال تعالى عنهم ﴿ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾ فإنهم على الأسرة ينظرون إلى ما أعطاهم الله تعالى من الخير والفضل. قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وعكرمة وغيرهم رحمهم الله تعالى: الأرائك هي السرر[2]وقيل عن الأسرة: أنها في غاية من الروعة والبهجة، إذ تتحول في الاتجاه كيفما أرادوا. قال مجاهد وغيره، رحمهم الله تعالى: وقيل: الأَسِرَّة تدور كيفما شاءوا. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: على سُرُر مكللة بالياقوت والزبرجد والدر[3] فمن مزايا تكريمهم أنهم يجلسون على سرر مرتفعة، وهم متقابلون يتحدثون ويستأنسون بنعيم الاجتماع. فجميع أهلها بين سعادة النفس بالاتكاء، وبين سعادة الاجتماع بغيرهم من أهل الجنة. فهم متقابلون فيما بينهم.

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٤/٢١٢)

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٥٨٢)

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠/٢٣)

وذكر تبارك وتعالى أنهم في متعتهم على الأرائك ينظرون ويشاهدون ﴿ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾ أي: أنهم ينظرون إلى نعيم الجنة. ذكر ابن كثير رحمه الله تعالى: أنه قيل: ينظرون في ملكهم، وما أعطاهم الله تعالى من الخير والفضل، الذي لا ينقضي ولا يبيد. وقيل معناه: ينظرون إلى الله تعالى. وهذا مقابلة لما وُصِف به أولئك الفجار ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ﴾[١] مما يبين عظيم منزلة وسعادة الأبرار. اللهم اجعلنا والمسلمين معهم ومنهم يا رب العالمين.

ثم يخبر جَلَّ جلاله عن عظيم ما هم فيه من النعيم، إلى درجة وإلى حد أن الناظر إليهم يدرك ذلك النعيم في وجوههم. فقال عَزَّ وجل ﴿ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴾ تعرف وتدرك إذ نظرت إليهم أنهم أناس مُنَعمُون. من خلال منظر وجوههم، الذي ظهر فيها وعليها قوة الترف والسرور، والمتعة التي يتنعمون ويبتهجون بها وفيها. بما ينفي عنهم كل ما يُنَقِّص عليهم حياتهم. فلا يرون إلا ما يسرهم ويبهجهم. فهو نعيم لا ينقطع أبداً.

ثم يذكر تبارك وتعالى شيئاً من شراب نعيم أهل الجنة، فيقول جَلَّ جلاله ﴿ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ﴾ يشربون أطيب وألذ ما يكون من أشربة الجنة. وذكر أهل التفسير في الرحيق أنه: أنه الخمر، وهو قول الجمهور. ثم تنوعت الأقوال في الخمر: أنه أجود الخمر. وقيل: الخالص من الغش. وقيل: الخمر البيضاء، وقيل الخمر العتيقة. وقيل أيضاً في الرحيق، وهو القول والمعنى الثاني: أنها عين في الجنة، مشوبة بالمسك. وأما عن كونه ﴿ مَّخۡتُومٍ ﴾ فقيل: معناه أنه ممزوج. وقيل: مختوم على إنائه. وقيل: أنه عاقبة ريح. وقد قال اللهُ تعالى عن ختامه ﴿ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ أي: خالطه مسك. وقيل: أن ختمه الذي يختم به الإناء مسك. وقيل: أن طعمه وريحه مسك. وقيل: أن آخر طعمه مسك[٢] بما يفيد تنوع الدلالة، والتي تعطي تفيد أن جميع ما تم ذكره لا يتنافى مع بعضه البعض، فلا يُجزم بقول دون الآخر، ولا نص يقطع بأنه واحداً دون الآخر. فجميعها أوصاف لا يمنع من تظافرها في الدلالة.

وهذا التظافر في المعاني يزيد من التعظيم والتشويق لنعيم الجنة، ولذلك أعقبه الله تعالى مباشرة بالحث على التسابق إليه، فقال تعالى ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ فاجتهدوا في تحصيل هذا النعيم بالحرص،

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥١٩/٤)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٠٥/٨-٢٠٦)

والاجتهاد على تحصيله بطاعة ربكم سبحانه وتعالى. وفي هذا اطماع العباد إليه بدلالة التنافس ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ وبما يقرر به أيضاً نفاسة نعيم الجنة. فإن دلالة ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ﴾ ما يفيد التشجيع والترغيب والتحريض على الاجتهاد. وفي دلالة ﴿ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ المبالغة في الحرص على تحصيله، وكأنه من نفاسته أنه إذا ظفر به البعض فات على البعض. فهو تشبيه لما يجب فيه من المسارعة بقوة التنافس، بأن يشدوا الجهد في ابتغائه بطاعة ربهم كما يجتهد المتنافسون على النفيس من نفائس الأشياء. فهو حث في غاية البلاغة البيانية، كما هو في غاية النفاسة لأنواع نعيم الجنة. اللهم نسألك الجنة وجميع إخواننا المسلمين يا رب العالمين، بلطفك وكرمك ورحمتك يا أرحم الراحمين.

ثم يصف تبارك وتعالى هذا الشراب الذي هو من رحيق مختوم، وأن ختامه مسك، ويجب أن يتنافس عليه المتنافسون، وذلك بالحرص على تحصيله بالطاعة والامتثال لله رب العالمين. فيقول عَزَّ وجل ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾ أي: وممزوج، ومخلوط ﴿مِن تَسْنِيمٍ﴾ أي: من عين كما قال تعالى بعدها ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ قال ابن جرير الطبري عن ابن زيد رحمهم الله تعالى: بلغنا أنها عين تخرج من تحت العرش، وهي مزاج هذه الخمر، يعني مزاج هذا الرحيق[1] وقيل: أنه اسم عين في الجنة، قال ابن مسعود رضي الله عنه: هي عين في الجنة، يشربها المقربون صرفاً. وتُمزج لأصحاب اليمين. وقال ابن قتيبة رحمه الله تعالى: إن التسنيم أرفع شراب في الجنة، ويُقال بأنه يمتزج بماء ينزل من تسنيم. أي: من علو[2] مما يدل على نفاسته العظيمة.

ثم قال تبارك وتعالى عن خصوصيتها، وخصوصية المعنيين بها، أنها خاصة لصنف المقربين من أهل الجنة ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ فهو مشروب المقربون. قال القرطبي رحمه الله تعالى: أي: يشرب منها أهل جنة عدن. وهم أفاضل أهل الجنة صرفاً، وهي لغيرهم مزاج[3] قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: يشرب المقربون صرفاً، وتمزج لأصحا اليمين مزجاً. قاله ابن مسعود، وابن عباس، ومسروق، وقتادة، وغيرهم[4] فالمقربون هم أعلى منزلة في الجنة، وبعدهم أصحاب اليمين، كما ورد في سورة الواقعة ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً

---

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٢٤/٢٤)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٠٦/٨)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧٥/١٩)

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٢٠/٤)

﴿٧﴾ فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ ﴾ فالسابقون هم المقربون، وأصحاب اليمين بعدهم. مما يفيد أن الجنة درجات، بحسب الطاعة والامتثال. اللهم اجعلنا من المقربين.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

بعد أن ذكر تبارك وتعالى ثواب المؤمنين، وقبلها جزاء المجرمين، وإظهار ما بينها من التفاوت والتضاد العظيم يخبر عَزَّ وجل بما كان من حال الجرمين في الدنيا من السخرية بالمؤمنين. فقا تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴾ فإن من رذائل أفعال المجرمين التي كانوا يصنعونها مع المؤمنين في الدنيا هو الاستهزاء والضحك من المؤمنين الذين صَدَّقُوا بالله وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وباليوم الآخر، واتبعوا دينه القويم.

ثم يخبر عَزَّ وجل بنوع آخر من أعمالهم وتعاملهم المشين مع عباده المؤمنين، فقال اللهُ تبارك وتعالى ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴾ وإذا مر المؤمنون بالذين أجرموا في طرقهم ومجالسهم ﴿ يَتَغَامَزُونَ ﴾ عليهم. أي: استخدموا أسلوب التهكم بالعين وبالألفاظ وبالحركة التي تصدر منهم، والتي مفادها الاستهزاء. فاستخدموا الضحك، الذي يمثل التهكم بالصوت، وكذلك التهكم بالمؤمنين بأسلوب الحركة التي تحمل دلالة الاستهزاء. لتحمل الإشارة باليد والعين، وذلك بقصد الاحتقار والاستهزاء.

ثم يخبر تبارك وتعالى بنوع ثالث من استهزاء المجرمين بالمؤمنين، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴾ وإذا رجع هؤلاء الكفار إلى أهليهم في منازلهم عند زوجاتهم وأولادهم ﴿ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴾ عادوا إليهم وهم يتحدثوا معهم حديث السخرية والفكاهة بشأن المؤمنين. وهو من باب الاحتقار والازدراء. واللوم لهم على ما هم فيه من اتباع الدين الحنيف، مع الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم. ومن دقائق البيان تكرار فعل الانقلاب مرتين. بما يعني ويفيد المداومة على تحقيرهم واستهزائهم بالمؤمنين، فيما بينهم، وكذلك إذا انقلبوا وعادوا إلى بيوتهم. فإن شغلهم الشاغل هو الاستهزاء أينما حلوا وكانوا. قال ابن عاشور رحمه

الله تعالى: من النسج الجزل في الكلام. وذلك لما في إعادة الفعل من زيادة تقرير معناه في ذهن السامع، وزيادة التجدد، حتى يكون فيه استحضار الحالة[١] مما يبين عمق المقصد في بناء السياق، ليتحقق به مراد مقصود. وهذه من براعة البيان في القرآن العظيم.

ثم يخبر الله تعالى عن تعريف ووصف الفجار للصحابة رضي الله عنهم، الذين هم أجل وأكرم الناس، وما نالوه بصحبتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال عزَّ وجل ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ فإن هؤلاء الفجار إذا رأوا المؤمنين ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: الصحابة رضي الله عنهم ﴿لَضَآلُّونَ﴾ أي: أنهم تائهون عن طريق الحق والصواب باتباعهم الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم. فاعتبروهم بحسب تقييمهم العقيم: أن المؤمنين هم أهل الضلالة، واعتبروا شركهم وما هم فيه من الضلال أنهم أهل الحق والصواب والهدى. مما يبين أن الضال يرى في نفسه الحق، ويرى المستقيم على دين الله تعالى ضال ومتخلف. مما يؤكد أن هذه الصفة مستمرة في أهل الباطل. فينعتون أهل الحق بما ليس فيهم، بل ينعتونهم بما هو متحقق فيهم من الكفر والضلال الواضح المبين.

كما أفاد البيان: أن أهل الباطل يستخدمون جميع أنواع التهكم مع المؤمنين. وأنهم يقلبون موازين الحكم، ويجيرونها على مرادهم، وما تهواه أنفسهم. بل ورد حكمهم بنون التوكيد ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ وأيضاً بلام الابتداء ﴿لَضَآلُّونَ﴾ بما يؤكدون به حكمهم الذي أصدروه. مما يستوجب على المؤمن الصبر على أذى غيره، فإنما يكيدونهم ويغيظونهم بما هم عليه من الإيمان والحق، والاستمرار عليه.

ثم يخبر الله تعالى عن تعدي هؤلاء المجرمون في شأن لا يخصهم، فقال الله تعالى عنهم ﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ﴾ فإن الله تعالى لم يرسل هؤلاء المجرمين حفظة على المؤمنين، ليحفظوا عليهم أعمالهم وأحوالهم. بما يفيد قوة متابعتهم للمؤمنين وأحوالهم، ومبالغتهم في ذلك، وكأنما هم مُكَلَّفُون بحفظ أعمال المؤمنين وتصرفاتهم.

ثم يختم الله تعالى سورة المطففين بالنتيجة الحقيقة العكسية في اليوم الآخر بين ثواب المؤمنين وثواب الكافرين. فقال جَلَّ جلاله ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾ فإن أهل الإيمان يضحكون اليوم من حال الكفار، إذ هم في العذاب يصطلون. فيضحكون عليهم كما ضحك الكفار من حالهم في طاعة ربهم في

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٢/٥٥٤)

الدنيا. ليكون جزاء وفاقاً. مما يبين ويوضح للمؤمنين ما يجب عليهم من الصبر على استهزاء الكافرين، ومغرياتهم، ومغريات الدنيا، فإن الفوز لمن صبر على طاعة الله تعالى، وعن معصيته عَزَّ وجل.

ثم إن أهل الإيمان ينظرون في هؤلاء الفجار وهم في العذاب يصطلون، ينما هم يتنعمون في الجنة ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾ فإنهم على الأسرة ينظرون إلى الكفار في العذاب وهم يصطلون، بينما هم يتنعمون بما أعطاهم الله تعالى من الخير والفضل. فمن مزايا تكريمهم أنهم يجلسون على سرر مرتفعة، وهم متقابلون يتحدثون ويستأنسون بنعيم الاجتماع. بينما أهل الكفر في العذاب يصطلون. وفي هذا موعظة للكافرين اليوم في الدنيا، بأن يدركوا الإسلام، وأنها موعظة وترغيب من ربهم عَزَّ في علاه، وتشجيع لأهل الإيمان بأن يثابروا على طاعة الله تعالى، لأن العبرة بالنتيجة يوم القيامة. وأن النتيجة فوز عظيم لا يدانيه فوز أبداً.

ثم يخبر الله تعالى عن كمال عدله بصيغة السؤال التقريري، الذي يقرر به عدله مع الكفار فيما كان منهم في الدنيا. فقال تعالى ﴿ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ فهل تم تحصيل الجزاء الرادع لأهل الكفر بما يستحقون من العذاب؟ ﴿ هَلْ ثُوِّبَ ﴾ هل جوزيَّ ﴿ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ بما هو موافق لكفرهم، واستهزائهم بالمؤمنين. بما يبين أن العمدة إنما تكون على الحال في الآخرة. وأن الذين كانوا يشعرون بأنهم منعمين من الكفار في الدنيا، فإنهم في العذاب المقيم في الآخرة يصطلون. وأن من كان في الدنيا ملتزماً بطاعة الله تعالى فإنه في الآخرة في نعيم مقيم، لا ينقطع عنهم أبداً. اللهم إنا نسألك ونتوسل إليك أن تجعلنا من الأبرار، وفي عليين، وجميع المسلمين بفضلك وتوفيقك ورحمتك يا رب العالمين، فأنك الرحمن الرحيم.

وأحمد الله تعالى وأشكره على ما أنعم به عليَّ من شرف هذا العمل، فوفقني على إتمام سورة المطففين. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.